مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الخطابة الأرسطية والبيان العربي
بين التلقي والأثر

عبد الخالق السلواني
باحث مغربي

2025

- **بحث محكم**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 2025-01-09

جميع الحقوق محفوظة © 2025

الخطابة الأرسطية والبيان العربي

بين التلقي والأثر

مقدمة

تعد مسألة العناية باختيار الألفاظ الملائمة للمعاني المقصودة في بناء الخطاب عادة قديمة عند أهل لغة الضاد؛ فالكُتَّاب العرب درجوا في كتاباتهم بمختلف أصنافها وحقولها المعرفية (الشعر، النثر، البلاغة، علم الكلام، الفلسفة، ...)، على اختيار خطاب يتميز بنصاعة الألفاظ على مستوى الشكل، ورصانة المعاني على مستوى المضمون، ليؤدي وظيفة البيان، والإقناع. يقول «الجاحظ» في كتابه «البيان والتبيين» إنه: «كلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى هتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان»[1].

من هذا المنطلق، كلما تحقق الانسجام بين الألفاظ والمعاني، كلما كان البيان أكثر إقناعا، يجعل المعاني الخفية جلية والدلالات البعيدة قريبة، يشرح ويوضح الملتبس، ويجعل المركب بسيط، والمجهول معلوم، ويحسن الاختصار، ويتفادى الحشو والتكرار في الكلام، فما هو اللفظ؟ وما هو المعنى؟ وما هي عناصرهما؟ وما الفرق بين الألفاظ المفردة والألفاظ المركبة؟ وكيف تتحقق المقولات الكلامية في بناء الألفاظ؟ وكيف تتحقق آليتي الاستعارة والجناس في بيان الخطاب؟

- مكانة اللفظ والمعنى في البيان العربي والخطابة الأرسطية

تعود الإرهاصات الأولى لمسألة العناية بالألفاظ والمعاني، ودورها في نسج المقولات والعبارات، وتأليف القضايا، إلى الفكر الفلسفي اليوناني بشكل عام، وإلى المنطق الأرسطي بشكل خاص، حيث خصَّها أرسطو بالدراسة والتقعيد في مختلف مؤلفاته المنطقية. يقول أبو نصر الفارابي (260-399هـ/ 874-950م) «وأما موضوعات المنطق، وهي التي تعطي القوانين، فهي المعقولات من حيث تدل عليها الألفاظ، والألفاظ من حيث هي دالة على المعقولات»[2].

تتجلى موضوعات المنطق في الألفاظ والمعاني، وتشتغل على توضيح العلاقة بينهما، على اعتبار أن الألفاظ ملفوظات، نتلفظ بها على مستوى الصوت، والمعاني أفكار مخزونة في العقل لها وجود جواني باطني داخلي، تسمى معقولات، يتحقق وجودها الخارجي عن طريق الألفاظ المفردة والمركبة.

وتتوقف القيمة الصدقية للألفاظ على المعقولات، حيث يصبح للألفاظ معاني صادقة، ولها دلالة، بفضل المعقولات؛ لأنها تصدر عن العقل. وعليه، فالألفاظ تمنح المعاني التحقق الخارجي، والمعاني تعطي الألفاظ الصدق واليقين العقلي.

1- الجاحظ، البيان والتبيين، to pdf: http://www.al-mostafa.com، ص، 31

2- الفارابي أبو نصر، إحصاء العلوم، قدم له وشرحه وبوبه الدكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ط، 1، ص، 33

يتطلب بيان الأقاويل الخطابية وفخامة معانيها حسب عبد القاهر الجرجاني (400-471هـ/ 1009-1078م)، توظيف البيان لآليات: التشبيه، التمثيل، والاستعارة، يقول: «التشبيه والتمثيل والاستعارة، فإن هذه أصول كبيرة [..] وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها وأقطار تحيط بها من جهاتها»[3]؛ أي إنها بمثابة أدوات تعبيرية، وركائز أساسية يقوم عليها الخطاب، فتجعله مليئا بالدلالات والمعاني البينة، وتحقق الوصل بين الخطيب والمخاطب، وتجعل المستمع يستحسن الألفاظ، ويستشعر معانيه الضمنية، فتتحقق جودة الإقناع والفعل.

وفي السياق ذاته، يقول أبو علي الحسين بن سينا (370-427هـ/ 980-1037م) في كتاب الخطابة: «واعلم أن الرونق المستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب وما يتبع ذلك من الهيبة والاستعظام، [...] فيجب على الخطيب أن يتعاطى ذلك، حيث يحتاج إلى الروعة وإلى التعجب»[4]. وبالتالي، فإن مسألة اختيار الألفاظ المناسبة للتعبيرات الكلامية، وإدخال التحسينات البلاغية عليها: كالاستعارة، والجناس، تمتلك أهمية كبيرة في صناعة القول الخطابي.

نسجل على هذا الأساس، ملاحظتين اثنتين: الملاحظة الأولى، هي أن اللفظ والمعنى يمثلان قطب رحى البيان العربي والخطابة الأرسطية. والملاحظة الثانية؛ هي أن الاستعارة، والجناس، بمثابة أقطار يدور حولها البيان العربي. هاتان الملاحظتان، سنجعلهما محورين لورقتنا البحثية هذه، وسنطرحهما للدراسة التحليلية لإبراز أثر الخطابة الأرسطية على البيان العربي.

3- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، قدمه وعلق عليه أبو فهد محمود محمد شاكر، دار المدني جدة، 1991، ط، 1، ص، 27

4- بن سينا، الخطابة، تصدير ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، حققه الدكتور محمد سليم سالم، نشر وزارة المعارف العمومية الإدارة العامة للثقافة بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ الرئيس، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1373ه/ 1954، ص، 203

المحور الأول: أقسام وأنواع الألفاظ، ومكانتها في صناعة الخطاب

تمتلك الألفاظ المستعملة في الصنائع المنطقية قيمة كبيرة، خاصة في صناعات: الخطابة، الشعر، والبرهان. تجعل الألفاظ الخطابية أتم إقناعا، وتزيد من جودة التصديق، وتجعل الأقاويل الشعرية أتم تخييلا، وتجعل القضايا البرهانية، أكثر تحصيلا لليقين، وتزيد التصديق الحاصل عن البرهان.

إن فخامة الألفاظ تجعل المعنى فخما، وغرابتها تجعل المعنى غريبا، يقول ابن سينا: «واعلم أن الاشتغال بتحسين الألفاظ في صناعة الخطابة والشعر أمر عظيم الجدوى. وأما التعاليم، فإن اعتبار الألفاظ فيها أمر يسير، ويكفي فيها أن تكون مفهومة، غير مشتركة، ولا مستعارة، وأن تطابق بها المعنى. ولا يختلف التصديق في التعليم بأي عبارة كان إذا عبرت عن المعنى. وأما الإقناع في الخطابة والتخييل في الشعر، فيختلف في المعنى الواحد بعينه بحسب الألفاظ التي تكسوه»[5].

تختلف أهمية استخدام الألفاظ باختلاف مجالات استعمالها، فالمشتغلون بعلوم التعاليم والحقائق اليقينية لا يعطون الألفاظ وتزييناتها أهمية كبيرة، بل يدخل عندهم من يعتمد عليها في باب المُزَوِّر والمُزَيِّف للحقيقة. في حين، تحظى بأهمية بالغة في كل من حقلي الخطابة والشعر، وتعدّ بمثابة المادة التي تتألف منها الأقوال الخطابية والشعرية. فما هي أنواع الألفاظ؟ وأيها تستخدمه صناعة الخطابة وأيها لا تستخدمه؟ وكيف تستخدمه وما مقدار استخدامه وفي أي موضع تستخدمه؟

1. التصنيف المقولي الأرسطي للألفاظ

يقسم أرسطو الألفاظ إلى ثمانية أقسام: فمنها المستولية، المغيرة، الغريبة، اللغات، المزينة، المركبة، المغلطة، والموضوعة[6]؛ فالألفاظ الغريبة: هي التي يستخدمها الخاصة من الناس دون العامة، لكنها غير مبتذلة عندهم[7]، بينما الألفاظ المغلطة: يعرفها ابن رشد بأنها هي التي يصعب النطق بها لصعوبة حروفها، أو لقلتها أو لكثرتها، وإما لتقارب مخارجها[8]. لكن ابن سينا يعرفها بأنها هي الألفاظ التي نغلط بها السامع، وعلى وجه الخصوص المتفقات من الأسماء والمترادفة في الوزن، وهي ألفاظ تليق بالشعر والسفسطة أكثر من الخطابة.

يبدو من هذا، أن ابن رشد اقتصر على بيان دلالة الألفاظ المغلطة اللغوية فقط. أما ابن سينا، فعمل على شرح وظيفتها اللغوية والمنطقية. لهذا ربطها بالأقاويل المغلطة التي يعمد فيها السفسطائي إلى استخدام ألفاظ متقاربة في الحروف، ومتشابهة في النطق من أجل تغليط السامع.

5- نفسه، ص، 199

6- بن رشد أبي الوليد، تلخيص الخطابة، تحقيق وشرح دكتور محمد سليم سالم، الجمهورية العربية المتحدة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1387ه/ 1967م، ص، 531

7- نفسه، 535

8- نفسه، ص، 537

والألفاظ المزينة، «هي ألفاظ جعل بعض أجزائها نغما حتى صارت بتلك النغم مزينة»[9]، غير موجودة في اللسان العربي. والألفاظ المركبة، فهي خاصة بالشعر كما أن البسيطة خاصة بالخطابة[10]، موجودة في اللسان العربي بشكل نادر جدا كقولنا «عبشمي»، وهي تركيب لـ «عبد شمس»، أو البسملة، فهي تركيب يختصر قول الله عز وجل «باسم الله الرحمان الرحيم»، أو مثل قولنا فلان «يتكشحم». يعرف هذا في النحو العربي بظاهرة النحت، فاختصارا للكلام درجت العرب على تلخيص العديد من الألفاظ الثقيلة على النطق، لتصبح خفيفة على اللسان، وهي ألفاظ غير مرغوبة عند أهل صناعة الخطابة؛ لأنها لا تصلح للإقناع وإيقاع التصديق. لهذا فمن الأجدر أن تستعمل في الشعر للزيادة في حصول التخييل[11].

الألفاظ الموضوعة؛ هي الألفاظ المتواضع والمتفق عليها بين أهل لسان ما، تختلف باختلاف الألسن. وألفاظ اللغات؛ تنقسم إلى نوعين[12]: أحدها، يستعمله صنف من أصناف الأمة (ألفاظ الخاصة، ألفاظ العامة)، وثانيها (الألفاظ الدخيلة)، وهي التي يسميها اللغويون بالألفاظ الأعجمية، نستعملها على طريقتين: إما بالإبقاء عليها كما هي دون زيادة أو نقصان، أو ندخل عليها بعض التغييرات لتصير سهلة على النطق والتداول بين الناس.

الألفاظ المستولية: مشتركة بين الجميع، يستعملها العامة والخاصة، غير أنها تخص أهل لسان ما، لها علاقة طبيعية ثابتة مع المعنى، لا تفيد معنى زائد، يقول عنها ابن رشد: «هي الألفاظ التي هي خاصة بأهل لسان ما، ومشهورة عندهم، مبتذلة، دالة على المعاني التي وضعت لها من غير توسط»[13]، تجعل القول محققا ليس فيه تخييلا، أو زيادة، أو نقصانا. لهذا، فهي تصلح لكل من صناعة البرهان، الجدل والخطابة.

أما الألفاظ المغيرة؛ فهي الأكثر شهرة من باقي أقسام الألفاظ الأخرى، وأكثر منفعة لصناعتي الخطابة والشعر، والتغيير هو استبدال لفظ بلفظ للدلالة على نفس المعنى، وهو صنفان: إما التغيير باستعمال لفظ شبيه الشيء مع لفظ الشيء نفسه ويسمى بالتمثيل، وإما التغيير بالإبدال وهو أن يؤتى بدل ذلك اللفظ بلفظ شبيه به، أو متصل به من غير أن يؤتى بلفظ الشيء نفسه، ويسميه أهل الشعر والبلاغة عندنا بالاستعارة والبديع[14]، يقول فيه ابن سينا: «واعلم أن القول يرشق بالتغيير. والتغيير هو أن لا يستعمل كما يوجبه المعنى فقط، بل أن يَستعير، ويُبدل، ويُشَبه؛ وذلك لأن اللفظ والكلام علامة ما على المعنى»[15].

9- بن رشد، تلخيص الخطابة، ص، 536

10- نفسه، ص، 534

11- بن سينا، الخطابة، ص، 204

12- بن رشد تلخيص الخطابة، ص، 535

13- نفسه، ص، 535

14- نفسه، ص، 532

15- بن سينا، الخطابة، ص، 202

وحسب ابن رشد، الألفاظ المغيرة تعطي جودة للقول الخطابي، ففضيلتها تتمثل في أننا بها نعرف أمرا لم يعرف أصلا، أو لم يعرف معرفة تامة، أو تقدم إفادة للمعنى المدلول لم يكن عند السامع؛ أي إنها تشرح وتوضح، وتجعل المعاني ظاهرة غير مستورة، وتكون الألفاظ المغيرة تامة الفعل بشرطين أساسيين هما:

أولا: ألا تستعمل الألفاظ الحقيرة، والكلمات النابية التي تمس بآداب الحوار والمناظرة.

ثانيا: ألا تتجاوز القدر الكافي الموصل للمعنى؛ أي أن تتجنب الإطناب في الحديث، وخير شاهد على فضيلة التغيير الأقاويل الشعرية، فهي تصير لذيذة بفضل التخييل والوزن وكلاهما تغيير[16].

2. أنـواع الألفـاظ

بعد أن توقفنا عند بيان أنواع الألفاظ وأهميتها في تشكيل القول وأيها يصلح وأيها لا يصلح، سنعمل في هذا المحور على التمييز في الألفاظ بين اللفظ المفرد واللفظ المركب، فهي مسألة حظيت باهتمام بالغ من طرف الفلاسفة المسلمين، قال عنها الفارابي: «إن الألفاظ في لسان كل أمة ضربان: مفردة، ومركبة»[17]. يضيف بن سينا: «واللفظ إما مفرد وإما مركب، وقد علم أن النظر في المفرد قبل النظر في المركب».

لهذا سننظر بداية في الألفاظ المفردة من خلال: الأسماء، الأفعال، والحروف، فما اللفظ المفرد؟ وما اللفظ المركب؟ وفي ماذا يختلفان عن بعضهما؟ وما هي أنواعهما؟ وكيف تتدخل الألفاظ المفردة في تأليف الألفاظ المركبة؟ وكيف يمكن استخدامهما في بناء الأقاويل الخطابية؟

1.2. الألفـــاظ المفـــردة

يعـرف بـن سـينا اللفـظ المفـرد بالقـول: «وذلـك أن اللفـظ المفـرد بنفسـه لا يـدل البتـة»[18]، هذا معنـاه أن اللفـظ المفـرد هـو الـذي لا تدل أجـزاؤه على شيء، كقولنا الإنسـان، فهو لفـظ يتركب من «الإن» و«سـان»؛ فهي أجـزاء لا معنـى لهـا. هـذا معنـاه أن اللفـظ المفرد حتـى يصير له معنـى يجب أن يدخـل دخول الجـزء في الكل. بالإضافـة إلى ارتبـاط دلالتـه بـإرادة اللافـظ أي الخطيـب، فهـو الذي يريـد له دلالة معينـة، «بل إنما يـدل بإرادة اللافـظ»[19]، فالعـين مثـلا قـد يـراد بهـا الدلالة على حاسـة البـصر، ويراد بهـا أيضا الينبـوع الذي يخرج منـه الماء، (اللفـظ + الدلالـة = المعنى).

16- بن رشد، تلخيص الخطابة، ص، 541

17- الفارابي، إحصاء العلوم، ص، 18

18- نفسه، ص، 25

19- بن سينا أبو علي الحسين، الشفاء، المنطق، 1 المدخل، تصدير الدكتور طه حسين باشا، مراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، تحقيق الأساتذة: الأب قنواتي، محمود الخضيري، فؤاد الأهواني، نشر وزارة المعارف العمومية الإدارة العامة للثقافة، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1371ه – 1952م، ص، 26

وعليه، فاللفظ المفرد قد يكون كليا مشتركا في المعنى كقولنا «الإنسان» لفظ يشترك فيه «عمر» و«زيد» وغيرهما؛ لأن كل واحد منهما إنسان، وقد يكون جزئيا خاصا بشخص محدد كقولنا زيد معلم.

يميز الفارابي في الألفاظ المفردة بين الأسماء والكَلم (الأفعال)؛ فالأسماء هي ألفاظ مفردة لها معنى ودلالة، لكن من غير أن تدل على زمان المعنى كقولنا مثلا «كرسي». أما الأفعال، فهي ألفاظ مفردة لها معنى في ذاتها، ودلالة في زمن ما، وقد يتعلق هذا المعنى بالزمن الحاضر كقولنا «يجلس»، أو بالزمن الماضي كقولنا «جلس»، أو بالزمن المستأنف في المستقبل كقولنا «سيجلس»[20].

وإذا لم ترتبط الألفاظ المفردة بغيرها؛ ارتباط الموضوع بالمحمول، أو المحمول بالموضوع، ارتفع وصفها بالصدق أو الكذب. لهذا، ولتحقيق الفهم الجيد للمعنى المطلوب، ووصفها بالصدق أو بالكذب، ينبغي على الخطيب أن يلجأ لاستعمال الأقاويل الشارحة مكان الألفاظ المفردة، كقولنا مثلا: «الإنسان» فهو لفظ مفرد لا يمكن وصفه بالصدق أو بالكذب، ولكن إذا أُوِّل اللفظ المفرد إلى صيغة القول الخبري كقولنا «الإنسان كائن حي، ناطق، عاقل، يتكلم»، جاز فيه آنئذ وصفه بالصدق أو بالكذب[21].

هذا ما شدد عليه عضد الدين الإيجي بالقول إن اللفظ المفرد بالصياغة الطبيعية الأولى (الإنسان) يبتعد عن التصديق والتكذيب، لذا لزم إخراجه من الصياغة الطبيعية، وإدخاله في الصياغة الخبرية، حتى نتمكن من الحكم عليه بالصدق أو بالكذب، كقولنا: «اضرب» صياغة لا يمكن إثباتها أو نفيها، ولتحصيلها لا بد من تحويلها إلى صياغة خبرية كقولنا «أطلب منك أن تضرب»[22].

ومن جملة الأمور التي يجب أن يتجنبها الخطيب عند استعمال الألفاظ المفردة حسب أرسطو، تجنب استعمال الأسماء الباردة التي يصعب فهمها، أو تلك التي تجعل المخاطَب يتخيل معاني زائدة لا حاجة لنا بها، يمكنها أن تُشَوِش على فَهمه، وتُؤثر بِشكل سِلبي عليه في تحقيق الإقناع. يمكن حصرها في ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: يتمثل في استعمال الأسماء المركبة الصعبة على الفهم والتخييل، أو التي تفيد معنى غير مشهور، أو تُخَيِّل معاني بعيدة؛ كاستعمال مفاهيم وعبارات فلسفية أو علمية كقولنا: تأييس الأيسات عن ليس[23] في مخاطبة العامة من الناس.

20- الفارابي أبو نصر، الألفاظ المستعملة في المنطق، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت لبنان، التوزيع المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 1991، ص، 41

21- المرسلي محمد، دور المنطق العربي في تطوير المنطق المعاصر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، 1989، ص، 20

22- نفسه، ص، 21

23- فكرة قال بها الفيلسوف الكندي في إطار موقفه من خلق العالم، عبر من خلالها عن أن الله خلق كل شيء من العدم أي من لا شيء ولا مادة، وهذا ما عبر عنه بقوله «تأييس الأيسات عن ليس»، أي إيجاد الموجودات من العدم. والأيس كلمة مشتقة من أيس وهو لفظ مهجور منه اشتقت كلمة ليس، والأيس هو الوجود. (الكندي أبو يعقوب بن إسحاق، إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، حققه وقدمه وعلق عليه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1367ه- 1948م، ص، 101).

الصنف الثاني: يتجلى في استعمال ألفاظ «اللغات»، وهي على نوعين إما استعمال أسماء أعجمية، أو استعمال الأسماء الموضوعة المنقولة المشتركة العامة؛ التي تدخل تحتها معاني كثيرة (غير متواطئة)، كقولنا مثلا الأبيض، فالأبيض لفظ مشترك عام يقال على أشياء كثيرة، يقال على الحليب، الثوب، والبيت...

الصنف الثالث: يتمثل في استعمال الأسماء القبيحة، (التي ليست جميلة)، فهذه الأصناف من الأسماء الباردة لا ينبغي أن تستعمل في صناعة الخطابة[24].

ومن وجهة نظر ابن سينا، فاختيار اللفظ يجب أن يراعي مجموعة من الشروط، حيث ينبغي أن يكون فصيحا صحيحا لا لحن فيه، ويراعي تمام الرباطات (الحروف)؛ أي ألا يجعل الرباطات في آخر الكلام ولا يباعد بين الرباطات بحشو دخيل، وكذا أن يراعي أمر التأنيث والتذكير والجمع والمثنى والمفرد، وتجنب إدخال كلام في كلام، وعند الاقناع أو التهويل يجب أن نبدل الألفاظ بالأقاويل والاسم بالقول إذا كان الاسم الصريح يخدش الحياء، مثل الاسم الصريح لفرج المرأة يستحسن استبداله بالقول عورة المرأة.

تكمن هنا أهمية الاستعارة، الجناس، التشبيه، وكذا الإيجاز في القول وتجنب الإطناب، في صناعة الخطاب بأقاويل خلقية، تتحرى الالتزام بالقيم الأخلاقية الإنسانية الفاضلة، وتتفادى التخاطب بالألفاظ الجارحة، والمخلة بالحياء والاحترام الواجب للمخاطب.

صفوة القول، إن للفظ دور كبير في صناعة الخطاب وتأثيث النقاشات والمناظرات، وبيان المعاني والدلالات، فهو «سلطان عظيم، وهو أنه قد يبلغ به، إذا أحكمت صنعته، ما لا يبلغ بالمعنى»[25].

1.1.2. الأسمـــاء

يقول الفارابي: «والمعاني المفهومة عن الأسماء منها ما شأنها أن تحمل على أكثر من موضوع واحد؛ وذلك مثل المعنى المفهوم من قولنا إنسان، فإنه يمكن أن يحمل على زيد وعلى عَمْرو وعلى غيرهما، فإن زيدا إنسان وعمرا إنسان وسقراط إنسان»[26]، هذا معناه أن المعاني المفهومة من الأسماء تنقسم لنوعين، أسماء لها معاني عامة، وأسماء لها معاني شخصية:

النـــوع الأول: أسماء لها معاني شخصية، «وما لم يكن من شأنه أن يحمل على شيء أصلا، إما أن يحمل على واحد فقط لا غير فإنها تسمى الأشخاص»[27]، هي معاني لا تحمل إلا على اسم/لفظ واحد، كأسماء الدول: المغرب، الجزائر، تونس ... وأسماء الأعلام: زيد، عمر، محمد ... كذلك الأسماء التي تقترن ببعض أصناف الحروف (الحواشي)؛ كحرف هذا، الذي يدل على ثبوت الصفة (المحمول) على الموصوف (الموضوع)، ويشير

24- بن رشد، تلخيص الخطابة، ص، 557-558.

25- بن سينا، الخطابة، ص، 220.

26- الفارابي، الألفاظ المستعملة في المنطق، ص، 58.

27- نفسه، ص، 59.

للدلالة على ماهية وجوهر الموصوف، للتعبير على ثبوت الدلالة على ذات الشيء، كقولنا مثلا هذا الفرس؛ أو هذا البياض.

النــوع الثاني: أسماء لها معان عامة «تسمى المعاني الكلية والمعاني العامة والعامية»[28]، تخص بعض معاني الأسماء التي تحمل للدلالة على أكثر من اسم؛ أي المحمولات التي يمكن أن تحمل على أكثر من موضوع، مثل قولنا: معنى ناطق؛ محمول يحمل ويستخدم للدلالة على كل الناس (زيد، عمر، سقراط...)، كذلك معنى حي؛ محمول يحمل للدلالة على النبات، الحيوان، الإنسان.

تنقسم الأسماء التي تقع على جماعة أشخاص، إلى صنفين، أسماء دالة على جماعة أشخاص دلالة ذاتية قارة لا تتغير، تلزم سائر الأجزاء، وأسماء دالة على جماعة أشخاص، قد تسقط عليه دلالة من الدلالات ولا تسقط عليه باقي أجزاء الدلالات وتسمى غيريا.

الصنف الأول: الأسماء الدالة على جماعة أشخاص دلالة ذاتية قارة لا تتغير، تتفرع إلى ثلاثة أنواع من الألفاظ:

- لفظ يطلق على كثير من الأشخاص مختلفة أشخاصها وأنواعها، وتسمى «جنسا» **يقول أرسطو: «هو المحمول على كثيرين مختلفين بالنوع من قبيل ما هو»**[29]، مثال ذلك قولنا: حيوان الذي يدل على الإنسان، الفرس، الطير، وغير ذلك.

- لفظ يطلق على كثير من الأشخاص مختلفة بأشخاصها لا بأنواعها، تسمى «نوعا» مثال ذلك قولنا: فرس زيد، وفرس عمر، فهذان يختلفان بالشخص (زيد، عمر) ويتفقان بالنوع (الفرس).

- لفظ يطلق على كثير من الأشخاص مختلفة بأشخاصها وأنواعها تسمى «فصلا» مثال ذلك قولنا: جسم نام ذو الأوراق؛ فالجسم «جنس» والنامي «نوع» وذو الأوراق «فصل»، وإذا سقطت عنها هذه الأسماء سقطت عنها معانيها ودلالاتها لهذا تسمى «ذاتية».

الصنف الثاني: أسماء تسمى «غيريا» تنقسم إلى نوعين:

لفظ يدل على كثيرين مختلفين من حيث «النوع» ويسمى «عرضا عاما»، مثال ذلك قولنا: الإنسان أبيض، والثوب أبيض، والحائط أبيض، فهذه كلها مختلفة بأنواعها وأشخاصها في أن كل واحد منها غير الآخر[30].

28- نفس المرجع والصفحة.

29- أرسطو، الجدل، نقل أبي عثمان الدمشقي، حققه وقدم عليه عبد الرحمان بدوي، الجزء الثاني، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، ط 1، 1980. ص، 496.

30- يقول أرسطو العرض: «هو ما لم يوجد واحدا من هذه: لا حدًّا، ولا خاصةً، ولا جنسا(..) أو هو الذي يمكن أن يوجد لواحد بعينه كائنا ما كان، وألا يوجد – بمنزلة الجلوس يمكن أن يوجد لواحد بعينه كائنا ما كان وألا يوجد؛ وكذلك الأبيض، فإنه ليس مانعٌ يمنع أن يكون شيءٌ واحدٌ بعينه مرةً أبيض، ومرةً غير أبيض» (أرسطو، الجدل، ص، 497).

لفظ يدل على كثيرين مختلفين بأشخاصهم، فيكون ذلك «عرضا خاصا»، مثال ذلك قولنا: الإنسان لحم ودم، الثوب كتان محوك، والتراب ماء وجص[31].

2.1.2. الأفعـــال

ينطلق المناطقة العرب في إطار التحليل المنطقي للفعل من التعريف الأرسطي على النحو التالي: بوصفه جزءا من الكلام له دلالة معينة، ويضيف إلى دلالته الدلالة على الزمان: الحاضر، أو الماضي، أو المستقبل، وبهذا يتم فصله عن «الاسم». وما يؤكد هذا التمييز، هو أن المعلم الأول «أرسطو» عندما عرف الفعل أيضا في كتاب الشعر، لم يأخذ من عناصره الخمسة (لفظ، دال بالتواطؤ، يدل على ما يدل عليه، يدل على زمان، ليس واحد من أجزائه يدل على انفراده، وهو دليل ما يقال على غيره) إلا الدلالة الزمنية[32].

فضلا عن هذا، «الكلمة الدالة على الوجود؛ يمكنها أن تكون اسما أو فعلا: اسما إذا كان الحمل لا زمنيا وفعلا إذا كان الحمل زمنيا»[33]. لهذا يميز أرسطو بين الفعل، وحالة الفعل، فالفعل يضيف إلى دلالته دلالة على الزمان (الماضي، الحاضر، المستقبل)، ويأخذ خصوصيته عندما يكون كعنصر داخلَ كُلٍّ مركب، وعندما يصير خارج الكل المركب يصبح مجرد اسم أي يأخذ حالة الفعل.

تنقسم الأفعال إلى نوعين: أفعال مفهومة معانيها من ذاتها، وأفعال غير مفهومة معانيها من ذاتها، وهي أفعال الربط والتي يطلق عليها اسم الأفعال الوجودية.

3.1.2. الحـروف

«الحرف لفظ دال على معنى لا يمكن فهمه بنفسه دون ربطه باسم أو فعل»[34]، هذا معناه، أن الحروف لا تأخذها معانيها التي تدل عليها إلا إذا ربطت بين اسمين، أو بين فعل واسم، غير أن أهل صناعة النحو العربي لم يفردوا لها أسماء خاصة. دخلت أسماؤها إلى اللغة العربية من أهل صناعة النحو اليوناني، ونذكر هنا كل من: الخوالف، الواسطة، الحواشي، الروابط. فما المقصود بكل نوع من هذه الأنواع؟ وما مدى أهميتها في بناء المعاني؟

✓ الخوالف: أطلق عليها هذا الاسم؛ لأنها عبارة عن حروف معجمة تَخْلُف الاسم وتقوم مقامه على مستوى اللفظ والمعنى، وهي كل حرف معجم، نستعمله في حالة عدم التصريح بالاسم الذي قد يوجد في حالة الفاعل؛ مثل قولنا كتبتُ، فالتاء المتحركة (إعرابها: ضمير متصل في محل رفع الفاعل تقديره هو)، في هذه الكلمة حرف نزل منزلة الاسم/ الفاعل، وعبر عن معناه، وتستعمل أيضا في حالة الدلالة على التملك مثل قولنا مِلْكِي.

31- ابن حزم، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، دراسة وتقديم أبي عبد الرحمان ابن عقيل الظاهري، تحقيق عبد الحق بن ملاحقي التركماني، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1428ه/ 2008، ص، 333.

32- المرسلي محمد، دور المنطق العربي في تطوير المنطق المعاصر، ص، 31-32.

33- نفسه، ص، 33.

34- نفسه، ص، 43.

✓ الواصلات: تسمى بهذا الاسم لأنها تَصِلُ الاسم، ومتى وصلته دَلَّت على دلالة معينة: إما للدلالة على التعريف؛ كحروف الألف واللام، التي نستعملها للتعريف. وإما للدلالة على النداء؛ مثل حرف يا ويا أيها، وإما للدلالة على أن الحكم الواقع على المسمى هو حكم يقع على جميع أجزاء المسمى؛ منها حرف كل، ومنها ما يدل على أن الحكم يقع على بعض أجزاء الكل؛ مثل حرف بعض[35].

✓ الواسطة: هي حروف تَتَوسطُ الألفاظ الدالة من الأسماء والأفعال، وتعمل على التأثير في دلالة اللفظ المركب من اسمين، أو من اسم وفعل، منها حرف: من، على، وفي... وما أشبه ذلك، التي يصطلح عليها النحويون العرب اسم حروف الجر.

✓ الحواشي: هي أصناف عديدة من الحروف، إذا اقترنت بالشيء أنتجت معاني ودلالات مختلفة، منها حرف إنَّ المشددة النون، تفيد التأكيد وثبوت الشيء وإثبات صحته. وحروف ليس، لم، ولا... التي إذا ارتبطت بالشيء دلَّت على النفي، وحرف نعم الذي يدل على الإثبات، وحرف ليت الذي يدل على الشك في صحة القول، وحروف كأن، يشبه أن يكون، وعسى... كلها حروف تدل على أن الشيء قد حدس حدسا.

بالإضافة إلى حروف: كم، متى، أين، وهل، تدل على التوالي كل المقدار، الزمان، المكان، ومعرفة وجود الشيء، هذا الأخير إذا ارتبط فقط بالاسم المفرد أو الفعل المفرد لم ينتج دلالة صريحة. لذا نبّه الفارابي على ضرورة إقرانه باللفظ المركب من اسمين، أو من اسم وفعل، أو أكثر.

زيادة على أنواع حروف الحواشي التي سبق ذكرها، نجد أيضا كل من حرف لِمَ، ما، وما شأن. من جهة، وحرف ما هو، من جهة ثانية، فحرف لِمَ يشترط أن يرتبط بالقول المركب الذي يحمل معنى ودلالة ظاهرة، وإذا حدث أن ارتبط باللفظ المفرد ينبغي أن تكون الدلالة مضمرة سبق التصريح بها؛ كقولنا لماذا خرج؟ والمقصود بالشكل المضمر، هو مثلا زيد سبق التصريح به. وعليه، يجب أن يرتبط حرف لِمَ بشيء معلوم، لتَنتج عنه دلالة ومعنى. نفس الخاصية يتقاسمها مع حرف ما هو، حيث ينبغي أن يرتبط باللفظ المفرد، كقولنا ما هو الإنسان، ولا يصح أن يرتبط باللفظ المركب؛ كقولنا ما هو الإنسان الحيوان، فهي عبارة لا معنى لها.

يقول الفارابي: «ومن الحواشي الحروف التي إذا قُرِنَت بالشيء دَلَّت على أنه مطلوب معرفة سببه، مثل قولنا لِمَ وما بال وما أشبه ذلك [...] فإن هذا الحرف إنما يقرن أكثر ذلك بما يدل عليه اللفظ المركَّب، مثل قولنا لِمَ يفعل زيد كذا وما أشبه ذلك. وقد يُقرن أحيانا باللفظ المفرد متى أُضمر معه شيء آخر مثل قولنا لماذا خرج، [...] وهذان الحرفان -أعني ما هو / ولم هو - يتشابهان في أن الشيء الذي يقرنان به ينبغي أن يكون معلوم الوجود ومختلفان في أن الشيء الذي يقرن به حرف لم ينبغي أن يكون مركبا»[36].

35- الفارابي، الألفاظ المستعملة في المنطق، ص، 44.

36- نفسه، ص، 53-54.

إلى جانب هذا فحروف: ما، وما هو، يراد بها معرفة الشيء في ذاته؛ أي ماهيته وجوهره الداخلي الثابت، هذا معناه أنه حرف يراد به السؤال عن ماهية الشيء التي تتوارى خلف الأعراض الخارجية، كقولنا مثلا ما الإنسان؟ فهذا سؤال يبتغي معرفة ماهية الإنسان الثابتة المشتركة بين كل الناس، باعتباره حيوان، عاقل، وناطق.

✓ الروابط: حروف الروابط أصناف متعددة؛ منها حروف الشرط، أو المضمنات بشرائط، ويطلق عليها أيضا اسم الشرائط[37]، وهي حروف تربط بين جملتين، ووظيفتها أن صدق واكتمال دلالة الجملة الأولى يتوقف على الجملة الثانية، وحرف الشرط هو الذي يربط بينهما، منها: إن كان، كلما كان، ومتى كان؟ ... وغيرها من الحروف المشابهة لها كمثال: إن كانت الشمس طالعة؛ فالنهار موجود.

وهناك حروف الجزم، التي إذا ربطت بين جملتين دلت على ثبوت وجود التالي، الذي يستمد وجوبه وصحته من الأول الذي وثق بوجوده أولا، مثل: لَمَّا، إذ... مثال ذلك: لَمَّا طلعت الشمس كان النهار، ولَمَّا جاء الصيف اشتد الحر[38].

بالإضافة إلى حروف الشرط، التي تفيد الوصل، هناك حروف تفيد الفصل والتباعد بين قضيتين، ومتى تم استعمالهما؛ دل على أن حكم القضية الثانية منفصل وخارج عن حكم القضية الأولى، مثل قولنا: أما، لكن، وإلا أن. تستخدم هذه الحروف أيضا للدلالة على الاستثناء، مثل قولنا إن النهار موجود إلا أن الشمس غير طالعة، فقولنا إن الشمس غير طالعة فقط، فهو أمر لم نوثق به بعد من أن النهار موجود أو غير موجود، وقولنا إلا أن، أخرجه من الظن إلى اليقين. ونفس المثال ينطبق على أما، ولكن.

على هذا الأساس، فالحروف سواء منها حروف: الشرط، الفصل، والاستثناء، دلالتها ومعانيها غير ثابتة[39]. تختلف باختلاف السياق التداولي.

وتجذر الإشارة إلى أن الحروف تكتسي أهمية بالغة في تأثيث الكلام الخطابي البليغ، الذي يكون بالتفصيل، التكرار، والعطف، يقول ابن رشد: «وينبغي أن تكون الأقاويل الخطبية مفصلة إما بأن تكون أواخرها على صيغ واحدة بأعيانها، وإما أن تكون – مع كونها على صيغ واحدة بأعيانها – أواخرها حروف واحدة بأعيانها، وهو الذي يعرف عندنا بالكلام المُفَقَّر، وإما بلفظ مكرر بعينه، وتكون مع هذا موصلة بحروف الرباطات».

فالكلام المفصل هو الذي تكون فصوله على نفس قدر المعنى الذي يتكلم فيه المخاطِب، دون أن يتجاوز المعنى؛ أي ألا يكون المعنى أطول من الفصول؛ لأنه حسب أرسطو إذا انقضت فصول القول الخطابي كان غير لذيذ في السمع[40]. والتكرار هو أن يستعمل المتكلم في أول قوله وفي آخره لفظ واحد أو قريب منه. فالتكرار،

37- نفسه، ص، 54.

38- نفسه، ص، 54.

39- الفارابي، الألفاظ المستعملة في المنطق، ص، 55.

40- بن رشد، تلخيص الخطابة، ص، 596.

أو العطف، هو الذي يجعل أيضا القول لذيذا سهل الفهم والحفظ، والقرآن الكريم يزخر بمثل هذا التكرار والعطف، كقوله تعالى في سورة «الحاقة» الآية 3: «الحاقة، ما الحاقة، وما أدراك ما الحاقة».

يمتلك القول: المفصول، المعطوف، والمكرور بالحروف، مزايا أخرى، على المتكلم، والسامع، يجعل الخطاب مليئاً بالمعاني والدلالات الواضحة، ويُسَهِّل على المتكلم إيصالها بطلاقة، وبلغة سلسة متناغمة، حيث يُحَسِّن التنفس، ويجعل الوقف في مواضعه، ويُمَكِّن السامع من أن يتبين قوله بجميع أبعاده: حسيا، عقليا، ووجدانيا.

يستعمل هذه الأقوال بشكل كبير خطباء الدين، السياسة، الأخلاق، والتربية؛ لأنها تُعِينُهُم على الإقناع، وحصول جودة التصديق، والانفعال، والتعليم. تجعل المخاطَب في المجال الديني أكثر تمسكا بالعقيدة. وتعين رجل السياسة في المجال السياسي على تجييش الجماهير، وشحذ عواطفهم وهممهم للانخراط في إيديولوجية الحزب، وتبني أفكاره السياسية وتحقق الغرض المقصود، كما تجعل المخاطَب في المجال الأخلاقي يَتَحَلَّى بالقيم الأخلاقية الفاضلة نظريا وعمليا. وتسهل الفهم، وتحقق الحفظ والاستذكار. أما في مجال التربية والتعليم، تُكْسِب المتعلم كفايات: معرفية، منهجية، تواصلية، واستراتيجية، تمكنه من الاقتدار على حَلِّ وضعيات جديدة، والاندماج السريع في الوسط الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، ليصبح عضوا فاعلا مؤثرا.

ينقسم القول الموصول، إلى كلام موصول بحروف الرباطات، من غير أن تكون بين فصوله تناقضات، مثل قولنا: «أما الفيلسوف فلان، فبحث في كذا، وأما الفيلسوف فلان، فبحث في كذا وكذا»، فالقسم الأول من القول لا يتعارض مع القسم الثاني، وهناك الكلام الموصول المفصول بتضاد مثل قولنا: أما النجباء فنجحوا، أما المتهاونون فرسبوا، أو قولنا: أما فلان فيقول الصدق، وأما فلان فيقول الكذب. هذا النوع من الكلام الموصول المتضاد من مزاياه أنه يجعل الاستدلال بين دعوتين متناقضتين أبين، أكثر وضوحا وإقناعا[41].

ومن الكلام الموصول المتدافع والمضارع: فالكلام الموصول المتدافع هو الكلام الذي تكون فصوله وأقسامه غير متساوية بعضها أطول من بعض. والكلام الموصول المضارع هو على خلاف المتدافع، تكون فصوله متساوية متشابهة، والتشابه يكون إما في أول الفصول أو آخرها، التشابه في أول الفصول يكون دائما بالأسماء، مثل قولنا: حَسَنُ الوجه، حَسَنُ الخُلُقِ. والتشابُه في آخر الفصول يكون بالمقاطع، أو بالحروف، أو بتصاريف الأسماء، أو باللفظ الواحد. والمتشابهة النهاية بالتصريف، يمكن أن تكون ألفاظها متشابهة، ويمكن أن تكون ألفاظها مشتقة من بعضها البعض، مثل قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال الآية: 30)، كلاهما يُحدث في الكلام إلذاذا[42].

ومما يجعل القول مختصرا موجزا، استعمال الفعل غير المربوط «قال أبو نصر: ويكاد أن يكون خطباء العرب يرون البلاغة، إنما هي استعمال القول غير المربوط»[43]، الذي يعرف بالفصول، وهو على صنفين: صنف

41- نفسه، ص، 601.

42- نفسه، ص، 602.

43- نفسه، ص، 577.

عدم حروف الرباط، صنف عدم المتوسطات التي بين أجزاء القول، أو استعمال الأسماء المفردة مكان الأقوال، وهذا ما يسمى بالإبدال؛ أي إبدال الاسم مكان القول بغرض الإيجاز والاختصار، فيجعل الخطيب أو الشاعر يستعمل بدل أقوال عديدة قول واحد، واسم واحد.

نستنتج من هذا التحديد للحروف، وأنواعها، وكيفية استخدامها، إن الحروف تفتقر للمعنى، والدلالة، فهي عبارة عن روابط، تربط بين فعل واسم، أو اسمين، أو أكثر. وعليه، فهي تأخذ دلالتها من الألفاظ المركبة، فما هي الألفاظ المركبة؟ وما هي أنواعها؟ وكيف ينبغي استعمالها؟

2.2. الألفاظ المركبة

يقول أبو نصر الفارابي: «والألفاظ المركبة، إنما تتركب عن هذه الأصناف - أعني عن الأسماء والكلم والحروف - وجميع هذه الألفاظ المركبة عن هذه تسمى الأقاويل، ولذلك تسمى هذه أجزاء الأقاويل»[44]، الألفاظ المركبة هي التي تتركب من اسمين، أو من اسم وفعل، أو من اسمين بينهما حرف، أومن اسم وفعل بينهما حرف، فتصير بذلك أقوالا متعددة نذكر منها: القول الخبري، القول الندائي، القول التعجبي، القول الاستنكاري، القول الاستفهامي، وهي كلها أقوال إنشائية.

كل قول مركب، يصير فيه أحد أطرافه صفة، والآخر موصوف، أو ما يصطلح بالمُسنَد (الصفة)، والمُسنَد إليه (الموصوف)؛ مثل قولنا: سقراط ذاهب، فسقراط هو الموصوف وذاهب هي الصفة، يسميه النحويون العرب، بالفعل والفاعل؛ إذا تركب القول من فعل واسم، أو المبتدأ والخبر؛ إذا تركب القول من اسمين.

يسمي المناطقة الموصوف بالموضوع، والصفة بالمحمول. وعليه، يميزون في الجملة بين الموضوع والمحمول؛ فالموضوع هو المُخْبَر عنه، والمحمول هو الخبر، «وقد جرت العادة في صناعة المنطق أن يسمى المعنى الموصوف والمسند إليه والمخبر عنه موضوعا، والمعنى المسند الذي هو الصفة والخبر محمولا»[45]. والمحمول فيه حمل جوهري يعبر عن الصفات الذاتية، وحمل عرضي يعبر عن صفات توجد في غيره. ويصطلح النحويون على الموضوع اسم المبتدأ وعلى المحمول اسم الخبر، كقولنا مثلا زيد تلميذ، فزيد موضوع/ مبتدأ، وتلميذ محمول/ خبر[46].

تتفرع الألفاظ المركبة إلى نوعين من الأقوال، القول المركب التام، والقول المركب الناقص.

1.2.2. القول المركب التـام

القول المركب التام حسب ابن سينا: «هو القول الذي يكون لأجزائه دلالات تامة، إما اسم أو كلمة»[47]، وعليه، القول التام هو ما تألف من اسم وكلمة، أو من اسمين، أو من اسم وكلمة وحرف.

44- الفارابي، الألفاظ المستعملة في المنطق، ص، 57.

45- نفسه، ص، 58.

46- ابن حزم، التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، ص، 339.

47- المرسلي محمد، دور المنطق العربي في تطوير المنطق المعاصر، ص، 17.

يصنف الفارابي في كتاب العبارة القول المركب التام إلى خمسة أنواع: الخبري، الأمري، الدعائي، الطلبي، والندائي. أما ابن سينا في كتاب الإشارات والتنبيهات، ذكر أنواع القول المركب، لكنه لم يحصر عددها، وهي: الاستعلام، الاستفهام، الالتماس، الأمر، النهي، التضرع أو المسألة.

لكن، يبقى استعمال القول، مرهون بما يقصده المخاطب من دلالة، هذه الدلالة إما تكون مطلوبة لذاتها وفي ذاتها، أي كغاية؛ الدلالة من أجل الدلالة. وإما تكون مطلوبة كي يفعل المخاطب فعلا؛ أي كوسيلة. نعبر عن الأولى بقول خبري مستقيم أو محرف، ونعبر عن الثانية بأساليب متعددة منها: الاستفهام، الاستعلام، الالتماس (في حالة تساوي مرتبة المتخاطبين)، الأمر أو النهي (في حالة علو مرتبة الآمر المخَاطِب أو الناهي)، والتضرع أو الدعاء (في حالة هبوط مرتبة المخاطِب الداعي وعلو مرتبة المخاطَب المدعو)[48].

2.2.2. القول المركب الناقص

القول المركب الناقص عند الفارابي هو «كل قول أمكنه أن يكون جزء أحد أنواع التام فهو غير تام»، وعليه، فهو قول يدخل كجزء في القول المركب التام، يكتسب دلالة عند دخوله في القول المركب التام، ومن الأمثلة التي يوردها ابن سينا في هذا الباب نذكر قولنا: في الدار - لا رجل[49]، ...

3. المعاني

على خلاف التصورات السابقة المؤسسة لعلم البيان التي بوأت الألفاظ مكانة أساسية في بيان الكلام من حيث قوته البلاغية؛ وجمالية صوره الشعرية، عمل الجرجاني على قلب العلاقة بين اللفظ والمعنى، فأعطى للمعنى دور المركز على حساب هامشية اللفظ، لهذا شَدَّدَ على ضرورة احترام مبدأ الاختصاص في الترتيب، حيث تتغير قوة اللفظ البيانية بتغير ترتيبه وتركيبه في الجملة، فقولنا مثلا: زيد يجلس على الكرسي؛ جملة تحمل دلالة ومعنى؛ تتصف بالبيان والوضوح، لكن إذا غَيَّرنا ترتيب هذه الألفاظ وصارت مثلا: «الكرسي يجلس على زيد»، ستصير هذه الجملة بدون دلالة معقولة. وعليه، يركز البيان على المعنى أكثر من اللفظ، هو الذي يضفي المعقولية على العبارات والأقاويل بشكل خاص، والخطاب بشكل عام؛ لأنه يصدر عن العقل، ويتميز بالمعقولية[50].

إذن، نحن هنا أمام مستويين من مستويات بناء الخطاب: الملفوظ والمعقول، فما هو الملفوظ وما هو المعقول؟ وما دورها في بيان الخطاب؟ وعلى أيهما يُحمل الصدق؟

48- نفس المرجع ونفس الصفحة.

49- نفسه، ص، 18-19.

50- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص، 5.

1.3. علاقة الملفوظ بالمعقول

يشير الملفوظ إلى كل ما يتلفظ به الإنسان باللسان، بالنطق، والكلام الخارجي، يعبر به عما يوجد في عقله من أفكار، سنسميها في هذا الإطار بالمعقولات، فهي بمثابة القوة التي يَعْقِل بها الإنسان الأفكار، ويكتسب بها العلوم، والصناعات، الجميل، والقبيح. تحصل المعقولات بالفهم في ذهن الإنسان؛ أي إنها داخلية[51].

يصير الملفوظ إذن، بمثابة دال على المعقول، يوضح مكان المعقول، وينوب عنه لصعوبة إظهار المعقول دون الملفوظ. والسؤال هنا هو على أي منهما يحمل الصدق أو الكذب، هل على المعقولات أم على الملفوظات؟

بما أن الجرجاني يعطي الأسبقية والأولوية للمعنى على حساب اللفظ، في إطار العلاقة بين اللفظ والمعنى، فإنه يحمل صدق أو كذب قضية من القضايا على المعنى وليس على اللفظ؛ أي إن الصدق يحمل على المعقولات وليس على الملفوظات. وفي نفس سياق موقف الجرجاني، يؤكد المعلم الثاني في كتاب العبارة، أن المعقولات هي الموضوع الأول والأساسي لقيمتي الصدق والكذب، وما الملفوظات إلا توابع ولواحق على المعقولات. وهكذا يكون الجرجاني والفارابي، وغيرهما من المناطقة المسلمين، يتفقون مع أرسطو في تخصيص قيمتي الصدق والكذب للمعقولات[52].

تجدر الإشارة إلى أن هناك اقترانا في القول بين المعنى واللفظ، وكأن القول يتألف من جزأين جزء خارجي ظاهر مسموع أو مكتوب نعبر عنه بالصوت أو بالكتابة وجزء داخلي جواني يرتبط بالعقل يحمل معناه في ذاته. «ومن طريف ما أثر عن المعاني قوله (الجاحظ) في الألفاظ والمعاني: «الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حُوِّلَ رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة وتغيرت الحِلْية»[53]. لتوضيح هذه الأهمية التي يمتلكها المعنى على حساب اللفظ، يقدم الجرجاني كل من التجنيس والحشو الذي لا يستحسن إلا مع المعنى، فالحكم عليه بالحسن أو القبيح يتوقف على ما يناجي فيه العقل النفس. وعليه ففضيلة التجنيس تتم بنصرة المعنى، والألفاظ يجب أن تكون في خدمة المعاني[54].

لكن، ابن سينا يخرج عن هذا الإجماع وينتقد ويرد على كل الذين جعلوا التصديق يقع على المعنى وليس على اللفظ، فالمعنى سواء كان موجودا أو معدوما يقع التصديق يقول: «فليس للمعنى مدخل في إيقاع التصديق»[55]، ولا يقع على اللفظ المفرد؛ لأنه قول مركب ناقص، فالتصديق يقع القول المركب المؤلف وليس على المفردات، وهو خلط نجم عند هؤلاء حسب ابن سينا بفعل الخلط في موضوع المنطق، حيث اعتبروا

51- المرسلي محمد، دور المنطق العربي في تطوير المنطق المعاصر، ص، 22.

52- نفسه، ص، 23.

53- شوقي ضيف، البلاغة تاريخ وتطور، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 9، ص، 40-41.

54- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، 6.

55- ابن سينا، الشفاء، المنطق، ص، 21.

أن المنطق هو النظر في معاني الألفاظ، يقول عنهم: «فلا خير في قول من يقول إن المنطق موضوعه النظر في الألفاظ من حيث تدل على المعاني، [...] وإنما تَبَلَّد في هذا من تَبَلَّد، وتَشَّوش من تَشَوش، بسبب أنهم لم يحصلوا بالحقيقة موضوع المنطق»[56].

نستنتج، أن العلاقة بين اللفظ والمعنى مسألة إشكالية يصعب الحسم فيها، فهناك من جعل صدق القول يتوقف على المعاني الداخلية، وهناك من ربط صدق القضية يقوم على الألفاظ. في ظل هذا التباين في المواقف، ولاستجلاء الأمر، سننتقل لبحث العلاقة بين الصوت والمعنى، فما علاقة الصوت بالمعنى؟ وهل تتعدد المعاني بتعدد أنواع الأصوات؟

2.3. الصوت والمعنى

تنقسم الأصوات المسموعة إلى نوعين: أصوات لها معنى ودلالة، وأصوات ليس لها معنى ودلالة. والأصوات التي لها معنى ودلالة تتجزأ إلى: أصوات لها معنى بالطبع والفطرة، وتشترك فيها أصوات الحيوانات غير العاقلة، وهي أصوات لها معاني ثابتة قارة لا تتغير، ولا تتطور، لا يمكن أن نستفيد منها في بناء العلم، وفي تعليم الصناعة، وفي الإخبار بها. وأصوات تدل بالقصد؛ يتواصل ويتخاطب بها الإنسان العاقل شفهيا وكتابيا، يسميها أرسطو الأصوات المنطقية الدالة. تبنى وتنسج بها العلوم، المعارف، والصناعات. يمكن تعلمها وتعليمها، ننقل بها الأخبار، نتواصل، نتفاعل مع غيرنا، ونحقق بها كلما نريده. والصوت الذي يدل بالقصد، إما يدل على شخص واحد بعينه دون غيره، كقولنا: زيد، عمر، أمير المؤمنين، الوزير، إلى غير ذلك. أو يدل على أكثر من شخص واحد، كقولنا: الناس، المواطنين، التلاميذ، الطلبة، الأساتذة، الأطباء، الحيوانات، والألوان، ...

بالإضافة إلى هذا، هناك أصوات مشتركة تدل على الواحد والكثير، كقولنا: الإنسان، فهو اسم مفرد، يطلق للدلالة على شخص واحد أو أكثر. وهناك أيضا ما يسمى بالأصوات المسميات، التي تختلف باختلاف الألسن؛ في التلفظ، والنطق، لكن معانيها مشتركة بين جميع اللغات، كقولنا مثلا؛ لفظ فلسفة فهي تحمل نفس المعنى مع وجود اختلاف بسيط في التلفظ بها[57].

تتحدد إذن، علاقة الصوت بالمعنى من خلال الأنغام، فالنغم يتناسب مع الصوت، نعبر به عن انفعالاتنا؛ فالغضب تختلف نغمة صوته عن نغمة الخوف، أو عن نغمة الفرح، وهو على وجوه ثلاثة: «الحِدَّة، والثِقَل والنَبَرَات»[58]، فالثِقَل والجهر في الصوت، يعبر عن فخامة القائل، وقوة معاني الكلام الذي فيه القول. والصوت الخَافِت، يعبر عن ضعف شخصية القائل، وهبوط مرتبته، وعُلُو مرتبة المُخَاطب.

56- نفسه، ص، 21.

57- ابن حزم، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، ص، 326.

58- بن سينا، الخطابة، ص، 199.

تساعد أنغام الأصوات الخطيب على زيادة التخييل، وتصوير الأمر المطلوب عند السامع. ومن أحوال النغم: النبرات، وهي أشكال تختلف باختلاف مكانها في القول، فقد تكون في بدايته، أو في وسطه، أو عند نهايته، وقد تكثر، أو تقل. ومن الأغراض التي يحققها القائل من وراء هذه النبرات؛ توضيح وشرح الأمر المطلوب، وإعطاء المُهْلة للسَّامع حتى يَتَصَوَّر، أو لتَفْخِيم الكلام، أو للتعبير عن أحوال القائل (الحيرة، الشك، الدهشة، ...). كما تجعل المعاني مختلفة، حيث يمكن للنبرة أن تجعل القول الخبري استفهامي، والاستفهامي تعجبي، والتعجبي خبري، غير أن ابن سينا نَبّه إلى أن فَخَامَة اللَّفظ لا ينبغي أن تستعمل في كل موضع، ولا ينبغي أن يقتدي في ذلك الخطيب بالشاعر، بل عليه أن يتجنب الغناء والتلحين، حيث كان العرب يطلقون على الخطيب الذي يكثر منه بالمُتَفَيْهِق. لهذا، عليه أن يتحرى التطابق بين متانة اللفظ وسلاسته، ومتانة ما يتكلم فيه وسلاسته[59].

59- نفسه، ص، 202.

المحور الثاني: الاستعـارة والجناس في البيان العربـي

تتمثل مهمة علم البيان في إنتاج قول مفيد على مستوى اللفظ والمعنى؛ لأن جمالية الكلام وبيان معانيه واستحسان ألفاظه لا ترجع إلى الألفاظ فقط، بل ترجع إلى الأثر الداخلي الذي تخلفه على الجانبين: النفسي والعقلي. عليها أن ترضي النفس والعقل، وكلما تحققت هذه المهمة، كلما كان البيان أكثر إقناعا، وهي مهمة تنهض بها بعض الأساليب البيانية: كالاستعارة والجناس... فما الاستعارة؟ وما الجناس؟ وما هي أنواعهما؟

1. الاستعـارة

يعرف الجرجاني الاستعارة بالقول: «اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر وغير الشاعر في غير ذلك الأصل»[60]. تعمل الاستعارة إذن، على استعارة ألفاظ من مجالاتها الأصلية، لتستخدمها في مواضع أخرى على سبيل التوسع والمجاز، وتقريب المعنى من المتلقي.

لهذا، تصنف ضمن المحسنات البديعية، يقوم عليها علم البيان في مختلف النصوص كالنص الشعري، والنص الديني، كقول الله عز وجل في سورة الإسراء الآية 24: «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة». تسمى عند أهل صناعة المنطق، بالألفاظ المغيرة، وهي نوعان، يقول ابن رشد «والنوع الثاني من التغيير أن يؤتى بدل ذلك اللفظ بلفظ الشبيه به أو بلفظ المتصل به من غير أن يؤتى معه بلفظ الشيء نفسه وهذا النوع يسمى في هذه الصناعة الإبدال، وهو الذي يسميه أهل زماننا بالاستعارة والبديع»[61].

تنقسم الاستعارة إلى قسمين، الاستعارة المفيدة أو البديعة، والاستعارة غير المفيدة أو المعيبة، والاستعارة المفيدة هي التي يتحقق من وراء استخدامها معنى، وفائدة، مثال هذا قولنا «رأيت أسدا»، وأنت تعني به رجلا شجاعا. فقد استعرنا لفظ الأسد من مجال الحيوان وأطلقناه على الرجل الذي ينتمي لمجال الإنسان. أما الاستعارة غير المفيدة أو المُعيبة هي أن نضع أسماء كثيرة لنفس الشيء؛ أي أن نطلق نفس المعنى على ألفاظ متعددة، أو نفس اللفظ على معان متعددة.

يضيف الجرجاني «وأما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتمثيل قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والأذان»[62]. نستشف من هذا القول، أن إبداعات الجرجاني في مجال علم البيان كانت تؤطرها وتوجهها أدوات المنطق الأرسطي، حيث جعل الاستعارة كأداة تعبيرية بيانية يستخدمها الخطابي، الشاعر، والروائي ... أداة منطقية مثلها مثل القياس،

60- نفسه، ص، 30.

61- بن رشد، تلخيص الخطابة، ص، 532.

62- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص، 20.

قوتها في الإقناع لا تتمثل في جمالية اللفظ، واستحسانه بالسمع، بل تتمثل في قدرتها على تحقيق الإقناع القلبي والعقلي، بحيث يجب أن يعيها القلب ويفهمها العقل.

بهذا التشبيه بين الاستعارة والقياس، يقيم تمييزا بين اللفظ ككلام نتلفظه باللسان، ونسمعه بالأذن. والمعنى الداخلي الذي ندركه بالعقل. وعليه، فالصدق حسب الجرجاني يحمل على المعنى دون اللفظ.

تبين هذه الاستنتاجات بما لا يدع مجالا للشك، أن العرب كانوا أهل منطق وعقل، وتفند الادعاءات التي تقول بان العرب أهل حس وخيال.

2. الجنـاس

الجناس عمل لغوي، يعمد فيه الشاعر مثلا إلى توظيف كلمات من نفس الجنس، حتى يغري ويوهم المتلقي أو المستمع، ويجعله يعتقد أنها لها نفس المعنى والدلالة، لكنها في حقيقة الأمر تشترك فقط في الحروف المستخدمة وتتقارب في اللفظ، غير أنها تتباعد تباعدا كبيرا من حيث المعنى، ولتوضيح الأمر ندرج مثال قول الشاعر:

«ناظراه فيمَا جنَى نَاظِراهُ أو دعاني أَمُتْ بما أُودعاني

لا يرجع جمال الجناس إلى هذا الخداع المغري، الذي جعلنا الشاعر نظن أن معنى الكلمة الثانية هو معنى الكلمة الأولى، وسرعان ما نتنبه إلى أنها غيرها وأنها تعطينا شيئا جديدا. وكأنها عطية غير مرتقبة»[63].

يصير إذن، المعنى هو المحدد والمالك لمفاتيح اللغة، وصدق أغراضها، فهو يجنبها كل أنواع التغليط والمغالطة التي يمكن أن يقع فيها الخطاب.

نجد في هذا الصدد، المعلم الثاني أبو نصر الفارابي، يعمل على توظيف كل درايته بالنحو العربي في كتاباته المنطقية، حيث يميز فيها بين: المغلطات بالألفاظ، المغلطات بالمعاني، والمغلطات بالقياس، «فلذلك يلزم معاند الغالط أن يبين أولا كذب النتيجة ثم يبين الكاذب من مقدمات البرهان أو يزيف شكل القول الذي ظن به أنه قياس»[64]. ويميز أيضا بين الأسماء المستعارة والمنقولة والمشتركة. ويوضح الاختلاف بين الألفاظ المتباينة، والألفاظ المترادفة، والألفاظ المشتقة. والألفاظ العامة والألفاظ الخاصة. وبالتالي، تزويد الإنسان بمنهجية فعالة لنشاط كان في ذلك العصر متروكا للإلهام، والارتقاء بالبيان من مجرد ممارسة عفوية إلى صناعة منهجية.

63- شوقي ضيف، البلاغة تاريخ وتطور، ص، 191.

64- الفارابي أبو نصر، الجدل، تحقيق وتقديم وتعليق د. رفيق العجم، دار المشرق، بيروت، توزيع المكتبة المشرقية، 1986، ص، 53 -54.

خـاتمـة:

قادت محاولات تقريب المنطق الأرسطي من الثقافة العربية الإسلامية، بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، المفكرين المسلمين إلى إثارة قضايا وإشكالات مهمة، سواء على مستوى علاقة اللفظ بالمعنى، أو على مستوى دور الألفاظ المفردة والمركبة في تشكيل الخطاب. فتمكنوا من تجاوز التصورات السابقة المؤسسة لعلم البيان، التي بوأت الألفاظ مكانة أساسية في بيان الكلام، من حيث قوته البلاغية، وجمالية صوره الشعرية. فعملوا على قلب العلاقة بين اللفظ والمعنى، وأعطوا للمعنى دور المركز على حساب هامشية اللفظ، فأضحت قيمة الصدق أو الكذب في القضية تعود إلى المعنى وليس إلى اللفظ؛ أي إن المعقولات هي الموضوع الأول والأساسي لقيمتي الصدق والكذب. أما الملفوظات، فما هي إلا توابع ولواحق على المعقولات.

صارت الإبداعات الفكرية العربية الإسلامية، بفضل شروحات الفلاسفة المسلمين للمنطق الأرسطي، تحمل في أوعيتها تجارب فكرية متنوعة، وغنية، أتاحت لعلومها النظرية والعملية، كعلم البيان فرصة نهج أسلوب يمتاز بالنصاعة والدقة في اختيار الألفاظ، ووضعها في أمكنتها الصحيحة وبث المعاني المستحدثة فيها دون عوج أو تعقيد.

على هذا الأساس، يتبين لنا، أن الفلاسفة المسلمين، لم يكونوا مجرد نقلة مقلدين، بل اجتهدوا لمحاولة تَبْيِئَة المنطق الأرسطي من داخل الثقافة العربية الإسلامية، على الرغم من البون الشاسع بين الثقافتين العربية واليونانية، والمسافة الزمنية الفاصلة بين حقبة الفلسفة الإسلامية وحقبة الفلسفة اليونانية. بالإضافة إلى الترجمة غير المباشرة للمتن الفلسفي الإغريقي إلى اللغة العربية. فهذه الصعوبات وغيرها، لم تقف عائقا أمام إبداعات الفلاسفة المسلمين، وذيوع الخطابة الأرسطية في شرايين الفكر العربي الإسلامي، وانصهارها مع حقول معرفية عربية أخرى، خاصة حقل البلاغة والبيان العربي، إلى درجة أننا لم نعد نستطيع الفصل بين ما هو يوناني وما هو عربي.

قائمة المصادر والمراجع:

- أرسطو طاليس، الجدل، نقل أبي عثمان الدمشقي، حققه وقدم عليه عبد الرحمان بدوي، الجزء الثاني، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، ط 1، 1980.
- بن سينا أبو علي الحسين، الشفاء، المنطق، 1 المدخل، تصدير الدكتور طه حسين باشا، مراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، تحقيق الأساتذة: الأب قنواتي، محمود الخضيري، فؤاد الأهواني، نشر وزارة المعارف العمومية الإدارة العامة للثقافة، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1371هـ - 1952م.
- بن سينا أبو علي الحسين، الخطابة، تصدير ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، حققه الدكتور محمد سليم سالم، نشر وزارة المعارف العمومية الإدارة العامة للثقافة بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ الرئيس، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1373ه/ 1954م.
- بن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، دراسة وتقديم أبي عبد الرحمان ابن عقيل الظاهري، تحقيق عبد الحق بن ملاحقي التركماني، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1428ه/ 2008م.
- المرسلي محمد، دور المنطق العربي في تطوير المنطق المعاصر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، 1989م.
- الفارابي أبو نصر، الألفاظ المستعملة في المنطق، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت لبنان، التوزيع المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 1991م.
- الفارابي أبو نصر، إحصاء العلوم، قدم له وشرحه وبَوَّبَه الدكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط، 1، 1996م.
- الفارابي أبو نصر، الجدل، تحقيق وتقديم وتعليق د. رفيق العجم، دار المشرق، بيروت، توزيع المكتبة المشرقية، 1986م.
- بن رشد أبي الوليد، تلخيص الخطابة، تحقيق وشرح دكتور محمد سليم سالم، الجمهورية العربية المتحدة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1387ه/ 1967م.
- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، قدمه وعلق عليه أبو فهد محمود محمد شاكر، دار المدني جدة، ط، 1، 1991م.
- الجاحظ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو، البيان والتبيين، http://www.al-mostafa.com.
- شوقي ضيف، البلاغة تاريخ وتطور، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 9.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com